

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

محاضرة بعنوان: " الطعائن ومستوياتها في شعر العلامة: امحمد بن الطلبة رحمه الله "

تقديم:

الطعائن جمع طعينة، وهي المرأة في هودجها، وقيل: هي الهودج عموما كانت المرأة فيه أم لم تكن، والفعل طعن يظعن ظعنا وطمعنا أي تحرك، وسار نحو قصد معين، ومنه قوله تعالى: (يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) الآية، وقرئ: (يوم ظعنكم) وقد تسمى المرأة عموما طعينة، ويسمى الجمل كذلك، والجمع طعائن وطمعن وطمعن، أما الأظعان والطمعانات فهما جمع الجمع.

والطمعن وما يتصل به موضوع متأصل في الشعر العربي القديم؛ فتارة يكون أحد ألوان المقدمة الطللية يتعاقد فيها مع مشمولات الرحلة وعناصرها المساعدة، وتارة يكون الأساس والمرتكز الذي تقوم عليه القصيدة الغزلية خاصة لدى شعراء البادية في العصرين الجاهلي و صدر الإسلام. لقد شكل الطعن (الرحيل) هاجسا مؤرقا لدى الشاعر العربي القديم في رحلته الوجودية وصراعه من أجل البقاء في محيط صحراوي "عدائي" جاف مجهول الأفاق.

من هنا كانت لوعة الفراق الناجم عن رحيل الحبيب في وصف الطعائن مضارعة في الشعر العربي القديم (الجاهلي، الإسلامي، الأموي) لحسرة الوفاة والارتحال النهائي عن هذه الدنيا، لذا لا غرو أن نستشعر ظلالة رثائية في وصف الطعائن نظرا؛ إلى ما يعتصر قلب الشاعر من ألم جراء هذا الفراق.

ولولا الأمل الكائن في الترقب والرجاء لكانت رحلة الطعائن في القصيدة العربية القديمة رحلة جنائزية بامتياز؛ حتى إننا نجد في "طعائنيات" القصائد إن صح التعبير بعضا من قاموس ومعجم "المراثي" مثل: النعي، النحيب، الليل، الخوف...

يقول عنتر بن شداد العبسي:

ظعنَ الذين فراقهم أتوقع وجرى ببينهم الغراب الأبقع
خرقُ الجناح كأن لحيي رأسه جلمان بالأخبار هَشْ موعُ

أبداً ويصبح واحداً يتجمع
في الوكر موقعها الشظاءُ الأرفع
قد أسهروا لي لي التمام فأوجعوا...
لكن بقاء "الأمل الحبيب" حيا محمولا تجنه تلك الهوادج والحمول، طاعنا نحو
"الأفضل" من بواعث البقاء ومكونات الوجود؛ سرعان ما ينقل السامع والقارئ
والقائل نحو آفاق البهجة والحياة؛ فيتناسي الألم، ويشرغ الشاعر في التغني
بظيعنته مادحا ومشيدا بالحامل (الناقاة) والمحمول (الحبيبة)... هنا يسمو الأمل
وينتصر الرجاء على القنوط يقول امرؤ القيس:

بعيني ظعن الحي لما تحملوا
إلى أن يقول:
لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا
يحلين ياقوتا وشذرا مقفرا
تخص بمفروك من المسك أذفرا
ورندا ولبنى والكباء المقفرا
كما ذعرت كأس الصبوح المخمرا
غرائر في كن وصون ونعمة
وريح سنا في حقة حميرية
وبانا وألوياء من الهند داكيا
إذا نال منها نظرة ريع قلبه

ويقول لبيد العامري:

فكان ظعن الحي لما أشرفت
نخل كوارع في خليج محلم
زجل ورُفِعَ في ظلال حدوجها
بقر مساكنها مسارب عازب
بالآل وارتفعت بهن حُزوم
حملت فمناها موقر مكموم
بيضُ الخدود حديثهن رخيم
وارتَبَّهن شقائق وصرير
وبدورها تغدو الطعينة "الناقاة" موضوعا للتغني والإشادة لأنها تحمل الأمل وتنشد
البقاء وتتحدى عوامل الفناء... لبيد العامري:

دهماء قد دجنت وأحنق صلبها
تسنو ويُعجل كرها متبذل
بمقابل سرب المخارز عدله
حرف أضر بها السفار كأنها
وأحال فيها الرضح والتصريم
شئتُ به دَنَسُ الهناء دميم
قلقُ المحالة جارنُ مسلوم...
بعد الكلال مسدم محجوم

رحلة الطعائن إذا في الشعر العربي القديم هي سفر وجودي نحو الأمل والخير،
وتحد لعوامل الفناء واستشراف للتجدد بكل معانيه؛ هي انتجاع الأفضل من
الأماكن والمراعي والظروف.

لذا فلا غرو أن نجدهم يشبهون تلك الرحلة عموما في مشهدها المترائي من بعيد
بالسفن الماخرة عباب البحر تارة؛ وبالنخيل المثمر تارة أخرى؛ وكلا التشبهين
مرتبط بالخير والعطاء والأمل، أمل الوصول إلى شواطئ النجاة، وأمل القطاف،
يقول امرؤ القيس مشيها مرأى الطعائن:

فشبهتهم بالآل لما تكشموا
أو المكرعات من نخيل ابن يامن
سوامي جبار أثيث فروعه
ويقول المثقب العبدى:

حدائق دوم أو سفينا مقيرا
دوين الصفا اللائي يلين المشقرا
وعالين قنوانا من البسر أحمر
ومن ظعن تطلع من ضبيب
يشبهن السفين وهن بخت
ويقول كعب بن زهير:

تبصر خليلي هل ترى من طعائن
كنخل القرى أو كالسفين حزائقه

ويقول غيلان ذو الرمة:

تبصر خليلي هل ترى من طعائن
لمية أمثال النخيل المخارف

الطعائن في شعر ابن طلبه

إن المكانة التي تبوأها ابن الطلبه في عصره وبعده لم تكن لتتأتى له لو لم يجسد
عصره ويعكس ثقافته ويعيش شجونته، لقد عبر عما عاشه ومجتمعه ووصف في
دقة ما رأى وأحس.

ولئن جاء وصفه للطعائن مشاكلا للصورة النمطية المألوفة للطعينة في الشعر
الجاهلي، إلا أن لطعائن ابن الطلبه خصوصية رمزية ثقافية ومكانية ونفسية
تخييلية طبعها وميزتها ووسمتها بميسمها الخاص ويمكن أن نلخص هذه
الخصوصية في نقطتين أو مستويين تجنبنا للإطالة وإرجاء للإسهاب في هذا
الموضوع في بحث لاحق إن شاء الله تعالى.

أولا: الطعائن المكانية:

تبدو الطعينة ووصفها في شعر ابن الطلبه وسيلة لا غاية؛ إنها وسيلة للتعلق
بالمكان والطواف به والتطويف فيه، والحنين إليه والتلذذ بذكره ووصفه

وتوصيف معالمه، والإسهاب في ذلك حتى يكاد السامع أو القارئ ينتاسي المطية التي قادته عبر هذه الرحلة.
وخير مثال على هذا النمط جيميته المشهورة؛ التي تكاد تكون قصيدة طعانية مكانية بامتياز:

وذكره أظعان تربعن باللوى
إلى البئر فالحواء فالفج فالصوى
تحل بأكناف الزفال فتيرس
إلى أبلقي ونكار فالكرب ترتعي
تكنسن أحداجا على كل ناعج
من القمع أو من نحر نكجير يمت
جواعل ذات الرمث فالواد ذي الصفا
وتزور عن ذي المرصيط فوركت
فصبحن جلوى طامي الجم وارتوا
أو احتملت من صلب لحريش تنتحي
أو السهب سهب التوامين فعلست
ومرت على قلب الظليم كأنها
وأمسى على كر المزيريف منهم
ومنهم بأوشال الندي منازل

لوى الموج فالخبتين من نعف دوكج
صوى تشل فالأجواد فالسفح من إج
إلى زيز فالأروتين فالأعوج
به حيث شاءت من حزيز وحندج...
عبن بأنواع التهاويل محدج
معاطن جلوى لا تريع لمن وجي
يميناً وعن أيسارها أم هودج
لمسي ثلاث جبه لم تعرج
ولم ينزلوا عن هودج خدر هودج
رعيوية الأملاح لم تنلجج
بواكرها والصبح لم يتبلج
خناطيل زوزت من نعام مهيج
لكاك كضوضاء الحجيج المعجعج
وحي على أوшал هضب الأفيرج

بعد هذا السرد الحماسي المفعم بالحركة والشجون لهذه الأماكن المجسدة للشاعر والمتجسدة به يخلص مؤكدا تعلقه بالمكان وأنه كان الغاية وسيظل؛ بالحنين إليه والتطلع إلى نشره من جديد.

منازل قد كان السرور محالفي بها هي عندي بين سلمى ومنعج
ألا ليت شعري هل إليهن عودة وهل أنا من غم التناي بمخرج
وفي الحقيقة لم تكن هذه الأبيات الحنينية إلى تلك المعاهد سوى "نفس" التقطه
الشاعر وملاً به رثيته وكيانه ليغوص من جديد بنفس جديد نحو أمكنة وأماكن
أخرى عز عليه ألا يذكرها أو يتلذذ بنطقها ويمنحها حقها الوجودي السرمدى
وفاء وعرافانا.

فيارب يوم قد رصدت طعانا بأبطح برث بين قوز وحشرح...
عوامد للسطلين أو هضب مادس نواكب عن وادي الخليج ففعلج
هذه الطعائن كذلك هي الأمل والرسو على شواطئ النجاة وحصاد الخير وقطافة
على غرار نظيراتها.

كأنهم إذ ضحضح الآل دونهم
صوادر من ميناء جور تحنها
أو العم من نخل ابن بوص تمايلت
خلايا سفين مثقل متمعج
نواتيها في زاخر متموج
شمايخها من مرطب ومنضج

"الظعائن المكانية" في شعر ابن الطلبة نمط تغدو معه الطعينة وسيلة إلى غاية تجديد العهد والوفاء للمكان والبوح له والحديث معه والإصاخة إليه، والتماهي معه في النهاية.

كما تجسد لاميته الشهيرة (صاح قف واستلج) هذا النمط الظعائني المكاني وذلك على نفس نمط الجيمية السالفة الذكر فبعد ذكره المشهد الأول للظعائن:
هل ترى من جمائل باكرات من لوى الموج عامدات الزفال
يسترسل في التغزل بظعائنه ثم الفخر بقبيله فخرا ذا نفس اجتماعي؛ بعد هذا نجده يعود ليأخذ نفسا جديدا يغوص به في المكان.

هاج قرح الغرام بعد اندمال
يوم وليت كانها حين جدت
ظعن ظعن الخليط يوم إنال
باسقات النخيل من كانوال

مائراتٍ معروفاتٍ على ظهرٍ مروري القليب ذي الطيرلال
جايلاتٍ عن اليمين تمزكـ بين ضحياً وتشل ذات الشمال
رُحْنٌ من منحَرِ التَّوَامِ رِواحاً تَنبَارِي بَهْنِ أَدْمِ الجِمالِ
أشقرِياتُ عُصْرٍ مُورٍ الأَعْضادِ ما في أرومها من تَقالِ
فاستمرَّت معصوباتٍ فأمست بالثنيا من الضلوع الطوالِ
ناجراتٍ هضب القلاتِ فِدِراً مان ترعى من تيرس بالمطالِ
فانتَحَّت من رُبى ذي الأوتادِ نجدي لَ لمرعى قصارها والطوالِ

ثانيا: الظعائن الرمزية:

كما كانت الطعينة وسيلة لتخليد المكان وتوفيته حقه وتجديد العهد له؛ نرى أن ابن الطلبة قد يتخذ الظعائن رمزا صوفيا للتذكير والموعظة والاعتبار وشحن الهمم في صرف الوسع والجهد نحو ما يحقق الفوز الحقيقي في الدارين.
ولئن عكست اللامية السابقة (انفاضة) بعض ظلال هذا المكون الرمزي في أبياتها الثلاثة الأخيرة التي ختم بها رحلته الظعائنية المكانية الفخرية التوجيهية:

وأرى الدهر ليس يبقي على حال
لا ولا تفرحن إن كنت يوماً
كم حظيظ بالأمس كان مقلاً
فلا تجزغن من سوء حال
في سرور ونعمة واحتفال
ومقل من بعد ثروة مال

ولكن خير ما يمثل هذا النمط الرمزي من الطعائن هو قصيدته:

أولى له أن يريه الهم والشجن
أشكو إلى الله ما لاقيت بعدهم
وضحح الآل بالمعزاء دونهم
إذ لملم الطعن يوم الرحلة الطعن
غدية الموج لما اعرورف الطعن
كما تكفأ وسط اللجة السفن

نجد حضور المكون الديني تناصاً واستشعاراً وتأملاً خاصة في ختام القصيدة:

أما ومن حج أرباب الحجيج له
لولا أميمة والماء النمير وما
لما تبعت حدوجا بالمطي ولا
ما حبت النفس شيئاً مذ علقت بها
وحيث تتحر عن المشعر البدن
من طابة طاب إذ يجري الندى الوهن
بأليت ما جر من أحداثه الزمن
وما بدالي شيء غير ها حسن

ويعضد هذا الملمح الرمزي كذلك ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن معظم غزليات ابن الطلبة هي غزليات رمزية صوفية تَنشد الحقيقة والمعرفة الإلهية وتمجيد النجاح الأخروي وقد نقل عن الشيخ ماء العينين بن شيخ الشيوخ الشيخ محمد فاضل قوله حين سمع قول ابن الطلبة:

إن نعمى وإن أم البنينا لفتاتان حلية الطاعنينا
إن أم البنين تنسيك نعمى إن نعمى تنسيك أم البنينا

قال الشيخ ماء العينين: عنى الدنيا والأخرة.

هنا إخوتي الأعزاء ومضة مرتجلة بدواعي الوقت والوفاء بدورنا لهذا الرمز الذي كرس حياته خدمة لقضايا مجتمعه ووسطه وولد ذلك فنا توارثته الأجيال وأدبا تحلو به المجالس وتاريخاً وثائقياً شاهداً للجميع لا يمكن تجاوزه ولا طمسه. ولنا في محاضرات قادمة عودة موسعة ومفصلة لهذا الموضوع وغيره من المواضيع ذات الصلة.